

الفاصل الزمني بين حادث الصفع وظهور الأعراض الذهانية الخطيرة (الفصام) كان أكثر من سنة،

لكن عصام ذكر هذه الأحداث وراء بعضها وكأنها حدثت متلاحقة تماماً الواحد وراء الآخر،

وقد بيّنا معنى ذلك في الحلقة الأولى أساساً لكنه يحتاج إلى تذكرة للتأكيد على دلالاته. هذا الربط ما بين "أنا اعتبرته وحي"

وبين "أنا ما فهمتشي بابا ضربني ليه"

ثم بين ظهور الأعراض الجسيمة، حين انقلب الوحي الذي أنجحه إلى وحي يقول له

"قلّد صوت الديك، فيقلده .. ثم يستنتج أن

"ده معناه حان وقت الانتصار"

كل هذا هو بمثابة إعلان على ما تم بالمرض من إعادة تشكيل الذوات في هذا التركيب المرضى الذي وإن بدا عشوائياً إلا أننا سنجتهد في قراءته كالتالي:

عودة إلى الفرض الذي جاء في الحلقة الأولى بألفاظ أخرى:

(1) إن فطرة عصام (حركيّة كليّته دون استثناء القشرة : انظر الحلقة الثانية) كانت يقظةً ومتماسكة ونشطة حتى لحظة الصفع (وكانت تنمو، وتفوّت لوالده، بل وتستعمله - تستعمل الوالد- أحياناً)

(2) إن قشرة عصام (ظاهر سلوكه وإنجازته مع ربط متواضع بالفطرة) كانت جافة ومطبعة ومغتربة حتى لحظة الصفع (وكانت تنجح، وتستمر عصام بما يحقق من إنجازات) وفي نفس الوقت تُرضى والده

(3) كانت ثمة علاقة تضلّح بين القشرة والفطرة تكمل حياته، وتنجحه، فتستمر مسيرته (مرة أخرى: مع التذكرة بأن الفطرة لا تكون كذلك إلا بهذه الوصلة مع القشرة: (الحلقة الثانية).

(4) إن الذي أنجحه متفوقاً - على عكس توقعه ورفضه دخول الامتحان - هو هذه العلاقة التصالحية بين القشرة والفطرة، مع غلبة دور الفطرة (توفيق الله)

(5) عزي عصام نجّاه متفوقاً للفطرة دون القشرة (تقريباً) ، وأسماه وحيًا (من هنا بدأ تعظيم الفطرة منفصلة عن القشرة، بل وناكرة دور القشرة " لأنّ ده مين يقول كلام في نافوخك غير ربنا" (الفطرة النامية هي الأقرب لربنا)

(6) حتى حادث الصفع لم يحدث ما يعلن أي درجة من التباعد بين القشرة والفطرة، اللهم إلا إذا أخذنا حدس الوالد في تفسيره لحكاية الصداق في الابتدائي.

(7) حدث حادث الصفع (الإهانة أمام غريب + عدم رؤية موقف

عصام المدافع عن أبيه (الذى هو هو من صفعه) --> السحق --> انهيار صورة الوالد --> انهيار الدعم الخاص انهيار حدود الذات Loss of Ego Boundaries (وتأجيل إعلانها) حدث كل ذلك والقشرة منفصلة، وكانت قد جفت لبعدها عن الفطرة الذى لم يكن قد أعلن إلا لاحقاً: بالمفارقة بين عزوفه عن دخول الامتحان (القشرة) ثم توفيقه في أدائه هذا التوفيق غير المتوقع الذى عزاه إلى الوحي (الفطرة) دون اجتهاده الشخصى (القشرة).

8) تشققت أو رقت القشرة لكنها ظلت متماسكة على السطح لمدة عام، محتجة بما يشبه الخصام مع الوالد، ثم تزايدت العزلة، وتراجع التفوق، ثم حدثت الإعاقفة في الدراسة كلها، إذ لم يعد شيء يغذى تماسكها، لا تصفيق الوالد، ولا اقترابها من الفطرة، ولا التفوق الدراسي في ذاته (لم يعد عصام "الديك الفصيح" في الدراسة)

9) انهارت القشرة بمحادث الصفح لكنها لم تتمزق تماماً وفوراً،

وانسحبت الفطرة إلى ظلام غائر حتى تحولت فيه إلى بدائية محتجة، متفسخة، معلنة المرض العقلي الخطير

أصل المسألة في خلفية الحالة

برغم حرصنا على عدم الربط المباشر بين ما يبدو سبباً وما يظهر على أنه نتيجة إلا أننا في هذه الحالة، ومع عدم وجود تاريخ للمرض النفسى في الأسرة، ومع احترام حدس الوالد برغم خطئه وغروره وشكوكه واغترابه، نضع خلفيات للخلل الذى حدث في تركيب عصام كما يلي:

(1) يقول الوالد عن "فطام" عصام

"..أول إنسان اتظلم في الجمهورية، ظل 21 يوم بدون أكل وشرب، يعنى حاجات بسيطة خالص، بسكوتة بتاع، لدرجة إنى قلت ده حايوت" لو طلت أبوس جزمته وياكل كنت عملتها،

وقد فوجئنا أن الوالد يربط هذه الـ 21 يوماً -بعد الفطام- بتوقف عصام عن الاستذكار!! ثم يلحق الوالد -بنفس الخدس-

لما بطل يذاكر في الثانوية العامة ربطت ده بده (ربط جوعه بعد الفطام بعدم استذكاره).

ولغرابة هذا الربط سأله الزميل كاتب المشاهدة: ربطت فطام عصام بمرضه النفسى؟ فيجيب الوالد:

"أكيد ده أحد عوامل عياه، ولكن هل الطب بيقول كده، ولا بيتعد عن رأيي؟"

(2) ربط الوالد أيضاً، بنفس الخدس، بين "صداع الابتدائية" الذى أصاب عصام ثم اختفى وبين مرضه لاحقاً (كما جاء في الحلقة الأولى)

" العيا في أساسه خالص إنه حصل واشتكى من دماغه ..الكلام ده كان في الابتدائي، .. رحنا لكتورعيون قال ما فيش حاجة، وراج الصداق، ظل الموضوع تمام التمام لحد الثانوية العامة، (بعد الحادث)، وماكانشى راضى يجش الامتحان.. لكن أنا دخلته إجبار، ونجح وجاب الدرجات النهائية في الرياضة" وقتها أنا اطمأنيت وحسيت إن موضوع ابتدائي (الصداق!!) ده ما أثرشى عليه !!

هذا والد له وضع خاص، استطاع أن يربط بين صداق ابنه في الابتدائي، وبين درجاته النهائية في الرياضة في الثانوية العامة؟

ولكن أى طبيب - أو معالج أو عالم - يمكن أن يصدق هذا الربط العجيب؟

نحن صدقناه -تقريبا- وكان من أساسيات ما بنينا عليه فرضنا هذا الآن.

هذا الوالد هو الذى استطاع أن يربط بين جوع ابنه 21 يوما بعد الفطام في سن سنة، وبين ما أصابه بعد عشرين سنة؟

يبدو أن هذا الأب له رؤية خاصة، وحُدس متميز لا يمكن إغفالهما، فهو برغم تحفظه وتقليديته، واستعماله عصام ثم أخته للتجسس على بقية الإخوة إلا أنه يبدو أن عنده صفات ليست مألوفة عند الأب الجبار المؤلف المتمثل في "سى السيد" مثلا، كما أنه هو الذى صفع عصاما بلا داع أمام غريب فانهار لاحقا!!

هنا يجدر بنا أن نثبت وصف الأب لنفسه

"أحب الأخلاق العالية، وألتزم جدا بالشريعة الإسلامية، أصوم وأصلى، وأكره الموبقات، بس فى طبعى عصبى شوية ، أقدس عيالى بعد الله ... "

(قارن ذلك بوصف الابن له، وأيضا وصف الأم (لزوجها) الخلتين السابقتين)

يبدو أن جوع هذا الأب العاطفى لم يمتلئ أبدا، وأنه كان يستعمل أولاده، وخاصة عصام، لإشباع هذا الجوع بشكل ما، فلم يتواجدوا أبدا بذواتهم لذواتهم.

عودة إلى معنى الوحي عند عصام

(1) عصام استعمل كلمة "الوحي" ليفسر بها توفيقه في حصوله على الدرجات النهائية في الثانوية،

(2) ثم تهادى في استقباله لهذا الوحي (المفيد في البداية) بعد أن تعمق وتخطى الحدود فأصبح "قوة دامغة" إذ راح يأمر بما ذكرنا ..قلد صوت الديك... الخ.

(3) ثم عاد يستعمل كلمة الوحي الناحية الأخرى بعد ظهور المرض، ثم الإفاقة المؤقتة منه حين يقول:

"لما جاني الوحي في سنة رابعة (جامعة) إني ما اخشش الامتحان، قلت لابويا، قال لي انشالله تأجل ثلاث آلاف سنة، ولا يهكم"

لاحظ مساحة السماح عند الأب لو صدق!

هل هو نفس الوحي؟

في الاستعمال الأول (لكلمة الوحي) : افترضنا أن الفطرة (مثل الجسد والعواطف، والوعي على مستوياته المختلفة) تساهم في التحصيل واعتماد المعلومات، حتى لو أنكرتها القشرة، وبالتالي هي التي أدت الامتحان من خلال القشرة وحصلت على الدرجات النهائية.

في الاستعمال الثاني: انفصلت الفطرة، وتعملقت البدائية، وصدرت الأوامر الذهانية (الجنون) لما تبقى من القشرة فأطاعت الأخيرة

في الاستعمال الثالث الأخير (الأمر بعدم دخول الامتحان) يبدو أن الفطرة بعد انفصالها النسبي عن القشرة، أصبحت ترفض أن تقدم خدماتها للقشرة بعد أن تشوهت وتشقت واهتزت إثر الحادث (الصفع).

النكوص إلى البدائية

حين انهارت القشرة، بعد حادث الصفع، رقت وتشقت دون أن تفقد تماسكها، لكنها لم تتفتت إلا بعد ما يقرب من سنة، وفي نفس الوقت لم تحل الفطرة محلها بل تمادت في الانفصال عن القشرة المهتزة على وشك التمزق، لتصبح أقرب إلى البدائية كبديل، وكاحتجاج معاً، وهكذا، ظهرت دلالات تنشيط المخ البدائي

فسرت إحدى الزميلات تبول عصام بجوار السيرير باعتباره إعلاناً لعزلته، وتحديداً جزيرته (منطقة نفوذه)، حتى لا يتخطاها غريب، كما تفعل بعض الحيوانات وهي تحدد منطقتها بمثل ذلك، ليصبح قوة طاردة بما ينبعث منه من روائح كريهة.

علامات أخرى على مسار المرض

كان عصام يتحسن لفترات تسمح باستمرار الدراسة، والنجاح المتقطع، وفي نفس الوقت كان المرض يتمادى:

"في رابعة كلية بدأت أحس ان تصرفات أبويا وأمي اتغيرت، يقولوا عصام مش عصام، العلاقة ما بقتشى زى الأول، عصام كان بالنسبة لهم حاجة كبيرة، وهما كانوا بالنسبة لي حاجة كبيرة، حسيت إنهم مش أبويا وأمي، ... فكرت أسيبهم، لكن ما اقدرتش على الأكل والشرب والنوم"

هذا الإعلان عن تغير العلاقة مع الوالدين حتى الانكار (وهو أمر متواتر في هذه الأمراض خاصة في سن المراهقة، وحول ذلك)، هو يدل -عادة- على اكتشاف المريض مدى

" الإنسان أول حاجة بيحى على إيديه ورجليه، ولو حيوطى يجيب لعبة من على الأرض حا يتكفى على وشه زى السجود، وبعدين بيقف!!

وبسؤاله عن موضوع التبول بجوار السرير قال :

الواحد بيتوضأ بإيه، بالمية، إذن الماء أظهر شيء، والبول ده ميه، إذن ماينفعشى ترمى ميتك فى الحمام، عشان كده كنت باتبول جنب السرير.

العلاج والتحسن المتقطع

ومع خطورة كل هذه الأعراض، إلا أن عصام استطاع، بالعلاج المتقطع أن يواصل دراسته، فبرغم رقة القشرة، ونفاذيتها لنشاط البدائية (التي كانت فطرة) ولسلوكيات النكوص، إلا أنها -كما قلنا- تشقت فقط ولم تتحلل تماما وتتبعده، وكان ما تبقى منها قادراً على الاستمرار والتحصيل بشكل يدل على كفاءة وقدرة البرجة والتدريب السابقين على التحصيل، يقول عصام عن أدائه فى الجامعة (بعد الحادث)

كنت باروح فارد عضلاتى، مافيش أصحاب ماثقى فى حد، لكن الكتاب أفهمه من نظرة واحدة بإذن الله،

وبرغم كل هذا المرض وأضل المريض دراسته وحصل على الليسانس وسنه 23 سنة فقط، (بعد تأخر سنتين لم يدخل فيهما الامتحان).

الخلاصة والمناقشة

لست متأكداً إن كانت الحالة، بعد أن شرحنا "أحوالها" هكذا، قد أصبحت أقرب إلى الفهم فالعلاج، أم أنها أصبحت أكثر تعقيداً وإلغازاً؟

تفسيرات بديلة

ثمة حلول وتفسيرات جاهزة بدلاً من كل ماقدمنا إليكم بعضها

(1) هذا الشاب مصاب بفصام من النوع التفسخى Disorganized Schizophrenia، وأعراضه تدل على أن التفسخ أصاب التفكير والكلام، ثم إن عنده أعراض ذهانية صريحة من "هلاوس وضلالات" ولا بد له - حتى لو لم نعرف السبب - من جرعات هائلة من المهدئات الجسمية أو ما تيسر من صدمات كهربائية إن لم يتحسن، وكل ما عدا ذلك باطل لا لزوم له، لأنه لا يمكن اثباته.

(2) هذه حالة فصام صريح نتيجة خلل فى كيمياء المخ، فى الموصلات النيورونية، وربما داخل الخلايا، نعم، لقد حدث نقص فى مادة "كذا" أو زيادة فى مادة "كيت"، ويمكن إصلاح ما حدث بتعويض النقص، أو معالجة الزيادة بما يقللها بعقاقير قادرة على ذلك.

(3) هذا شاب ملبوس، ترك الصلاة وعق الوالدين، فلبسه جان خبيث، يأمره بالأذان دون أن يصلى ويشوه عقيدته، وبجرعة من الرقى والقراءة وطرده الجان يمكن أن يعود إلى صوابه.

النقد المحتمل للفرض المطروح

إن من يقرأ هذا الفرض الذى أوردناه، وهو يعرف تلك التفسيرات الجاهزة التى ذكرناها حالاً، لابد أن يتهمنا أننا نكبّر الصغرة، ونتعسف في التفسير، وأن كل هذا الجهد لا لزوم له في النهاية، وخاصة أنه لا يوجد دليل علمي صحته، فهو إضاعة للوقت بلا طائل.

وبمنتهى الصراحة أنا ليس عندي رد مقنع في مواجهة مثل هذا النقد الوجيه، ومع ذلك سوف أرسم خطة العلاج كما تصورناها، وكما أمّلنا أن نمارسها، في ظل الفرض الذى وضعناه:

أولاً: نحن لا ننكر أن ما أسميناه **الفطرة**، حين انفصلت عن **القشرة** قد انقلبت إلى **البدائية**، فهى قد أعلنت -بذلك- نشاطاً بيولوجياً محمداً صادراً عن المخ البدائي مستقلاً بلا رادع، مع العجز عن احتوائه من مستوى مخي أنضح، وبالتالي **وجب إعطاء العقاقير التى تعمل على هذا المخ البدائي انتقائياً** -المهدئات الجسيمة- أى على هذا المخ الأقدم، على ألا تشله هذه العقاقير تماماً ودائماً، ولكن لتحذ من نشاطه مستقلاً (Major Tranquilizers (Neuroleptics) بشكل مؤقت.

ثانياً: إن احترام معنى أعراض عصام وإعلانها لافتقاده التواصل في الأسرة وخارجها، وغير ذلك مما ذكرناه، لابد أن يكون حافزاً إلى أن يشمل العلاج توفير نوع من التواصل أعمق وأصدق، تواصل له معنى ومصداقية وهدف: بدايةً: عن طريق المعالج/ أو المجتمع العلاجي، ثم نقلاً إلى الأسرة بشكل تدريجي، حتى يشاركوها في **"استرداد"** عصام متكامل **"إليه"**، حين يتبين عصام (كما نتبين نحن) من خلال كل ذلك أننا لسنا بعد **"يوم يفر المرء من أبيه وأمه وأخيه"**.

ثالثاً: إن احترام حدس الوالد وحسن نيته (برغم عيوبه وخطئه الجسيم) يوجهنا إلى محاولة تصحيح بعض مواقفه، التى يبدو أنها اقتصرت في الماضي على تغذية القشرة دون الفطرة، بالإضافة إلى امتلاكه للأولاد بزعم التقديس (بعد الله!)

إن تغذية احتياجات الوالد من خلال العلاج أو غيره، من مصدر مناسب، مجردة مناسبة، يمكن أن يغنيه عن استعمال ابنه هكذا حتى التفريغ فالكسر.

رابعاً: إن الحفاظ على ما تبقى من كفاءة القشرة عند عصام، مع التذكرة بأن تلك القشرة هى التى نجتحت أن تواصل الدراسة حتى الحصول على الليسانس، يجعلنا نحافظ على مكاسبها، ونسارع بأن يعمل عصام - وقد تخرج- عملاً يومياً، نأمل أن يوفق فيه كما وُفق في الدراسة .

خامساً: إن احترام الفطرة، برغم مآلها المؤقت المنهار إلى البدائية ، قد يسمح لنا بترجمة ما ذهب إليه من تنويعات في استعمال لفظ **"وحي"** ترجمته إلى لغة التكامل البشرى. الذى يتجلى في لغة **الإيمان البسيط العميق** معاً، وليس في صورة

القهر التديني السطحي، وكل ذلك قد يكون قادراً على أن يجمع عصام إلى نفسه بمساعدة كل ما سبق من عوامل علاجية مجتمعه، الأمر الذي يجعل هذا النوع من الإيمان من أروع تجليات الفطرة السليمة باعتباره القوة الضامة لمستوياتنا إلى بعضها، ولبعضنا إلى البعض الآخر، بأقل قدر من القهر السلطوي السطحي.

تذكرة أخيرة

يسير كل ذلك جنباً إلى جنب مع تعاطي العقاقير بطريقة مذبذبة انتقائياً، بحيث لا تشل حركة المخ القديم نهائياً وطويلاً كما قلنا، وإنما تسمح بإطلاق نشاطه تدريجياً ليتكامل مع سائر المستويات، متصالحاً، ثم متجادلاً، مع القشرة طول الوقت عوداً إلى اطلاق مسيرة النمو في اتجاهها الصحيح، ثم تسحب العقاقير بقدر ما يتجمع عصام على نفسه، وتنتقل طاقته في الناس إلى الناس، إليه.

اعتذرا وإصرار

كل هذا ليس خيالا طوبائيا

ذلك أن أى قدر منه، في الاتجاه السليم، هو قادر على تحقيق بعض ما نرجوا لأنفسنا

إن لم يكن لعصام.

والله أعلم